الحدث العظيم

بقلم رئيف خوري

ليست فكرة الوحدة العربية بالظاهرة الجديدة في وجود العرب . ان جذورها لتمتد عميقا الى العصر الذي انبروا فيه على مسرح التاريخ . وان سلكها ليمتد ملموسا ، بارزا ، عبر العصور التي عاشها العرب ناهضين او عاثرين .

ولا انكار ان تاريخ العرب كان مسرحا لكثير من التفرقة المبنية على العصبية لقبيلة ، او العصبية لاسرة ، او العصبية لدين او لطائفة ، او لاقليم ، او لاصل من الاصول العنصرية البعيدة .

ولكن سلكا من فكرة الوحدة العربية كان ابدا يمتد مخترقا هذه الالوان كلها من العصبيات ، مذكرا العرب انهم امة واحدة وشعب واحد .

ولكن فكرة الوحدة العربية ، شأنها شأن الافكار كلها ، كانت ابدا في حاجة الى اسباب وملابسات تهيء لها الظهور من عالم الذهن الى عالم التجسد الواقعي . وما نريد هنا ان نرجع الى ماضي التاريخ البعيد لنستعرض تجارب العرب وكيف تحقق لهم نوع من الوحدة تحت ظل الراشدين والامويين ، ثم ، كيف بدأت تتفكك عرى هذه الوحدة تحت حكم العباسيين ، الى ان كان الفتح العثماني الذي « وحد »كثيرا من العرب ولكن تحت سيطرة السيادة الاجنبية ، والى ان كان عصر الاستعمار الحديث الذي قطع العرب تقطيعا ليسهل عليه حكمهم من جهة وليوجد ضربا من التسوية بين الدول الاستعمارية المتناحرة .

حسبنا ، هنا ، القول ان فكرة الوحدة العربية التي ظلت منذ انطواء عهد الراشدين والامويين ، تنتظر الاسباب والملابسات التي تهيء لها الظهور من عالم الذهن الى عالم التجسد الواقعي ، قد انبعثت ونبضت نبضا قويا في فترة انحلال الامبراطورية العثمانية وبدأت مفاهيمها تتبلور تبلورا جديدا يخرجها من دنيا الابخرة العاطفية والاخيلة الوهمية ، لتتخذ اشكالا اقرب الى رعاية الواقع والممكن في عالم له اوضاعه واحواله التي لا بد من دراستها .

وبعبارة اخرى ، بدا بجلى ان التفكير عربيا وعلى اساس الوحدة العربية لا بد فيه من التفكير على اساس الواقع الداخلي والواقع العالمي ايضا .

وانه لمن الطبيعي لقومية مستضعفة ، ممزقة ، تنشد حقوقها وامانيها ، ان تعمد الى المناورة بين القوى المتصارعة على مسرح العالم . ولكن اعظم القوى المتصارعة على مسرح العالم في ابان انحلال الامبراطورية العثمانية كانت تتمثل في دول كبرى تتزاحم على الاستعمار وتستعمل في هذا التزاحم حتى شعارات الحرية والتقدم التي تنادي بها الشعوب المغلوبة.

وهكذا ، لم يكن مناخا للقومية العربية ، قبل الحرب الكونية الاولى ، الا ان تناور بين قوى الاستعمار المتزاحمة عليها ، تريد خلاصا من الاستعمار التركي ، فتنحاز الى الاستعمار البريطاني ، او الفرنسي ، فيتقضى عليها ان تكون كالطائر الذي يفر من المقلى ليقع في الموقدة !

وجزأ الاستعمار الاوروبي القومية العربية تجزئة بين اكبر دولتين استعماريتين في ذلك العهد وهما بريطانيا وفرنسا ، تتبعهما ايطاليا . وبرغم ذلك ، برغم التجزئة ، والنقلة من نير استعمار الى آخر،كان الحادث تقدما بالقياس الى القومية العربية التي تنشد الوحدة والحرية .

كان ذلك تقدما بسبب ارتفاع الشعور القومي العربي الى مستوى اعلى من الوعي والقوة ، نتيجة التجربة التي مرت بالشعب العربي محاربا للاستعمار التركي ، مخدوعا بالاستعمار الاوروبي ، مضطرا لمتابعة نضال لم ينته بعد .

وكان ذلك تقدما بسبب الثغرة الهائلة التي حدثت في جبهة الاستعمار الاوروبي حين انهارت روسيا القيصرية ، وقامت مقامها دولة جديدة كرهتها الدول الاستعمارية الغربية وحاولت ان تتدخل فيها عسكريا ، ثم اكتفت بأن تطوقها بطوق عازل ، فأصبح بيننا وبين هذه الدولة نوع من شركة قضى بها الوضع العالمي ، هي الشركة لحفر قبر الاستعمار الغربي .

حتى اذا كانت الحرب الكونية الثانية ، وانهزمت الدولة النازية الهتلرية كان ذلك تقدما اخر عظيما ، بالقياس الى القومية العربية . ومع ان الاستعمار الغربي كسب مكاسب بنتيجة هذه الحرب ، واهمها انضمام الولايات المتحدة الاميركية ، الى صفوفه ، فان هذا الاستعمار خسر خسائر قاصمة للظهر . .فقد اصيبت المانيا الهتلرية ، الدولةالاستعماريةالناشئة القوية ، بضربة صرعتها ارضا . وكذلك اصيبت فرنسا الاستعمارية بمثل هذه الضربة الفادحة ، ولا عبرة بمحاولاتها الجنونية لاستعادة هيبتها الاستعمارية ، فانها لن تنجح باكثر من مراكمة الحماقات والاوزار على نفسها . وكذلك خرجت بريطانيا الاستعمارية مضعضعة متراخية . وفي الوقت نفسه ظهرت جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، ودول الديمقراطية الشعبية ، على مسرح النفوذ العالمي ظهورا بدل التوازن الدولي والعلاقات الدولية ، كما ان عددا من شعوب الارض كسر نير الاستعمار الغربي واحرز استقلاله وسيادته ، او حظا اوفر من الاستقلال والسيادة ، وبين هذه الشعوب الشعب العربي في كثير من بقاعه ، وكل هذا لم يكن في سيء من مصلحة الاستعمار الغربي ، كل هذا كان خسارة للاستعمار الغربي لا بعادلها انضمام الولايات المتحدة الاميركية ، الى صفوفه .

واذا ، فقد حدث في العالم ، بعد الحرب الكونية الثانية وضع جديد بالقياس الى القومية العربية الصاعدة، وهو وضع اكثر ملاءمة واكثر مؤاتاة لاماني القومية العربية في الاستقلال والسيادة والوحدة. فبينما كانت القومية العربية قبل الحرب الكونية الاولى ، لا تجد سبيلا الى التعامل الا مع الاستعمار العثماني او الاستعمار الغربي ، وبينما كانت القومية العربية بعد الحرب الكونية الاولى ، لا تجد سبيلا الى التعامل الا مع هذا الاستعمار الغربي او ذاك ، اصبحت الدنيا بعد الحرب الكونية الثانية لها بوابتان بحيث تستطيع القومية العربية ، ان يعاملها الغرب بما ينفق وحقوقها وامانيها ، ان تعامل دول اوروبا واسيا الاشتراكية ، او دول اسيا وافريقيا المتحررة .

ولقد اوشك ان يفسد هذا الوضع خطأ وقع فيه القادة السوفيات بعد الحرب الكونية الاخيرة . فقد ابوا ان يعترفوا الا بان العالم كتلتان : غرب وشرق ، ورفضوا ان يدركوا امكان الحياد الايجابي ، وفاتهم ان حركات التحرر الوطني في الشعوب المستضعفة لا يمكن ان تكون رهنا بقيادة الاحزاب الشيوعية ، او وقفا على الانقلابات الاشتراكية فاوشكوا ان يعزلوا انفسهم، وان يقضوا على الدور الذيتؤديه الاشتراكية في المساعدة على تصفية النظام الاستعماري في العالم .

ولكنهم ما لبثوا ان ادركوا خطأهم الذريع ، فاصبح يمكن التعامل مع جمهوريات الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية ، دون قبول النظام

الشيوعي او النظام الاشتراكي ، ودون قبول لقيادة الاحزاب الشيوعية . وكان هذا ايضا كسبا كبيرا للقومية العربية .

ففي هذا الجو العالمي امكن ان تولد الجمهورية العربية المتحدة من اندماج جمهوريتي مصر وسوريا ، وان يكون لهذه الجمهورية الجديدة اسس متينة ثابتة تمكنها من البقاء والنمو .

لقد وجدت في الوضع العالمي الدعامة التي تستطيع ان تتركز عليها اول نواة للوحدة العربية ، تجسد في الواقع الحي تلك الفكرة القومية التي نبض بها قلب كل عربي ، وهي ان يجتمع العرب كلهم في كيان سياسي واحد.

على ان هذه الدعامة التي وجدت في الوضع العالمي ما كانت لتكفي لولا ان جاوبها ما قام في الوضع العربي من دعامة يمكن ان تتركز عليها النواة الاولى المنبثقة للوحدة ..

وهنا لا بد من شيء من التفصيل .

متى تصبح الوحدة صحيحة ؟

ان القومية المشتركة ، مدعاة قوية للوحدة . لا شك في ذلك . ولكنها ليست المدعاة التي تكفي بنفسها . فقد تكون قومية مشتركة بين اجزاء شعب مقسم ، ثم لا تصح الوحدة السياسية بين اجزائه . لماذا ؟ لان بعض هذه الاجزاء لم يستكمل اسباب سيادته واستقلاله وحريته .

فلا يصح عندئذ الحاق الاجزاء التي استكملت سيادتها واستقلالها وحريتها بالاجزاء الخاضعة للسيطرة الاجنبية ، ما لم تخلع هذه الاجزاء ، او تساعد على خلع نير السيطرة الاجنبية عنها .

وكذلك ينبغي اعتبار نوع الحكم الوطني في كل من الاجزاء التي يراد توحيدها . فاذا كان نوع الحكم مختلفا كأن يكون جمهوريا وملكيا مثلا، اثر ذلك بشكل الوحدة بين ان تكون تامة ، او فدرالية او حتى كونفدرالية .

يضاف الى ذلك ان الوحدة ، تكون اصح ما تكون اذا حدثت رضى واختيارا .

والناظر في هذا التوحيد الذي قام بين جمهوريتي سوريا ومصر يراه وافيا بكل هذه الشروط المبدئية ، الخطيرة ، التي لا تقوم الوحدة بدونها قياما عمليا صحيحا .

فمصر وسوريا دولتان عربيتان مستقلتان تمام الاستقلال ، ليس فيهما جيوش اجنبية ، ولا هما مرتبطتان ارتباطات خارجية ، تحد من استقلالهما وسيادتهما وحريتهما . وهما الى ذلك تخضعان لنظام من الحكم جمهوري وطني. فالوحدة بينهما ، اذا ، عملية صحيحة، لا تعترضها عوائق يستعصي ازالها ، او عوائق يكون من الحمق اغفالها .

اما انقطاع الصلة البرية بينهما فليس من العوائق التي لا يمكن ازالها بعد الذي نشاهده من تقدم وسائل النقل جوا وبحرا ، وبعد الذي نلمسه من ترفي وسائط الدفاع العسكري.

والذي يزيد في متانة هذه الوحدة انها انبثقت من ارادة السوريين والمصريين بلا ضغط ولا اكراه ، وان هذه الوحدة ليست سوى نواة حية ستنمو وتقوى ، وقد اخذت تنمو وتقوى حقا باستعداد اليمن ان تنضم اليها على اساس فدرالي .

ويزيد في متانة هذه الوحدة انها تلبي حاجة الامة العربية التي تواجه اخطارا مشتركة تتمثل في قيام اسرائيل ورغبتها في الامتداد ، وتتمثل في ضراوة الاستعمار الغربي وشهوته على استعادة ما فقد ، وفي ضراوة الاستعمار التركي عميل الاستعمار الغربي ، وفي مؤامرات عملاء الاستعمار في داخل الاقليمين السوري والمصري وفي خارجهما . ولا شك ان الاقليمين المصري والسوري يكمل احدهما الاخر بنوع خاص. فسوريا تشكو قلة في السكان بينما تشكو مصر اليوم زحمة السكان . وفي مصر وسوريا امكانات زراعية وامكانات صناعية عظيمة ، وفيها رساميل وطنية تستطيع ان تتضافر على احياء الزراعة والصناعة في الاقليمين .

ان انبثاق الجمهورية العربية المتحدة حدث تاريخي يأتي في مصلحة العرب من اي الوجوه قلبته . وهو حدث قومي في تطور الامة العربية لم تشهد مثله منذ عصور نهضتها الاولى. انه بشير بعودة هذه الامة الى مسرح التاريخ بوجه جديد .

وفي الان نفسه هو حدث عالمي يقوي ركيزة من ركائز الحياد الايجابي في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، منطقة الشرق الاوسط وبذلك يقوي امكانات السلام العالمي وتقويض صرح الاستعمار تقويضا اقرب الى الهدوء ، يقي الانسانية والحضارة الانسانية ، شر سقوط انقاض هذا الاستعمار عليها واحداث افظع القتل والدمار فيها . يبقى ان كثيرا سيتوقف على مقدار ما تثمره الجمهورية العربية المتحدة من ثمار ايجابية تتجلى في تعزيز مكانة العرب ، وتحقيق امانيهم في السيادة والاستقلال والحرية وفي بناء مجتمع ديموقراطي تقدمي يسعد فيه المواطن العربي .

ان بناء المجتمع الديمقوقراطي التقدمي شرط اساسي لنجاح التجربة ونموها حتى تشمل العرب جميعا . ويزيد في بهجتنا ان هذ الشرط الاساسي لم يفت الزعماء الذين وضعوا القواعد لقيام الجمهورية العربية المتحدة ، فاعلن القائد العربي العظيم الحكيم ، جمال عبد الناصر : ان الجمهورية العربية المتحدة دولة ديمقراطية تتيح لجميع المواطنين فرصا متكافئة . وكذلك اعلن الاب الروحي للوحدة العربية الرئيس شكري القوتلي .

والحق ان القومية العربية في الواقع التاريخي اليوم لا يمكنها الا ان تكون تقدمية ، تطورية ، تحررية ، والا فهي مقضي عليها ان تظل «شيئا» ينجرّ وراء عجلة الاستعمار ، متشكلا في شكل لا محتوى له كهذا «الاتحاد العربي» الذي اعلنته ملكيتا العراق والاردن . ان اقل ما يقال في الاتحاد انه ليس بحدث . وهو يذكرني برجل متزوج اصابته النكاية لان اخاه تزوج ، وأقيمت له الاعراس ، فدعا بشيخ او كاهن ليزوجه من زوجته نفسها مرة اخرى . حقا ان التاريخ لا يضحك على ذقنه مثل هذا الضحك. ان الجمهورية العربية المتحدة تركت باب الانضمام اليها مفتوحا على مصراعيه لمن شاء من العرب بلا تدخل في النظام الداخلي ملكية كان او جمهورية . ولكنها اشترطت شرطا واحدا هو اتباع سياسة الحياد الايجابي، اي ان لا يكون العضو المنضم مرتبطا بارتباطات خارجية تحد من سيادته واستقلاله وحريته ، وتوجب الانحياز الى معسكر من المعسكرات التي تمزقها العالم وتؤدي الى الحرب .

وليس يدهشنا ان يقوم « الاتحاد العربي » بعد قيام « الجمهورية العربية المتحدة » . فالقومية العربية هي ايضا تخضع لقانون التاريخ ان توجد فيها رجعية وتقدمية .

اما الغد فللتقدمية . ونحن العرب ما برحنا نعيش للغد منذ ان قطع الاستعمار ، والحكم الرجعي ، اوصالنا .

لذلك ، في اي مكان شاء الحظ ان نوجد وان نولد ، فنحن مواطنون بكل امانينا وقوانا في الجمهورية العربية المتحدة ، وشعارنا :

عاشت وحدة العرب في ظل الاستقلال والسيادة في مجتمع ديموقراطي متحرر !

رئيف خوري